على هامش الأبحاث النفسية والفلسفية

أساليبنا في البحث

وعلام تعتمد ؟

للدكتور محمد البهى

كتبت مرة فى مجلة أزهرية كلمة حول تطور فكرة « الشر » فى القصص الميثلوجية Mythology والأبحاث الفلسفية ، وكيف دخل كثير مما قيل فيها من آراء فى شرح ما جاء فى الديانات السماوية السامية من التعبير « بالشيطان » على لسان المفسرين العقليين Rationalisten

فكتب « باحث » آخر يلاحظ أن كلمتى اشتملت على « غموض وإبهام » ، وأنى قد « أطلت من غير داع » ، وأن « كل اعتمادى على الفكر الخيالية » ، ولم تكن « لمقدمتى الطويلة كبير فائدة تذكر للمسلمين وغيرهم ». وليتنى « إذ تعرضت للفلسفة أتيت منها بما يستند إلى البرهان العقلى أو التجربة والمشاهدة كما هو أساس الفلسفة الحديثة التى انتهت إلى إثبات الأرواح المجردة علوية وسفلية . ولكنى لم أفعل ، بل أتيت بما هو منقوض بنفس الفلسفة الحديثة التى انتهى إليها تفكير الفلاسفة العصريين فى أبحاثهم »

وهكذا كان « بحثه » مملوءاً بمثل هذه الأحكام والملاحظات . وقد ختمه بأن وعدنى « بالمناقشة باعتبار أنى مسلم »

مثل هذا الكاتب ليس بالقليل ، وطريقته فى البحث غير مجهولة . وهو فقط مثل جزئى لظاهرة تطبع تفكير الكثير من « باحثينا » وكتابنا

لهذا لا أقصد من كلمتى هذه سوى شرح تلك الظاهرة وتعليلها من ناحية البحث التاريخى الفلسفى ، وإرجاعها لحالة معينة من الحالات العقلية التطورية للجماعة من وجهة البحث السيكولوجى

كثيراً ما نقرأ « للباحثين » أمثال هذه العبارات : ما أقوله (أنا) حق ، أو هو الحق الصراح ، أو واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار . وما تقوله أنت (للخصم) باطل ، أو غامض مبهم ، أو لا يستند إلى الواقع ولا إلى العقل والمنطق ؛ والحس ينكره والتجارب لا تؤيده ... ... الخ

هل وضع مثل هذا الكاتب مقياساً علمياً مجرداً عن التأثر الشخصى لمعرفة الحق والباطل ؟ هل اتخذ فاصلاً من الأساليب اللغوية لتبين النص والصراحة والوضوح من اللبس والاحتمال والإبهام ؟ هل أراد من الواقع الواقعَ الذى له اعتبار عام ، أم ذلك الذى يدركه هو من أفق ومحيط ؟ هل أراد بالعقل العقلَ الإنسانى ، بغض النظر عما لكل فرد من ثقافة وعادات وعن الفروق الفردية والبيئية ، أم أراد به الشائع المعروف كالذى يحكيه الفارابى عن المتكلمين فى زمانه من أنهم كانوا يقولون : هذا يقبله العقل ، هذا لا يسلم به العقل ، ويقصدون بالعقل الشائع المتعارف بينهم ، وبذا فهموا المنطق الصورى خطأ واستخدموه خطأ كذلك؟ ماذا قصد من الحس وأى شىء أراده بالتجارب؟ أأراد بها ما يتعلق به خاصة أم أراد تلك التى تكوّن قواعد العلوم العامة ؟

هذه أسئلة يعاق العلماء على جوابها الفصل بين بحث وبحث . فإذا كان الباحث متأثراً بشخصه فى وضع « مقياس » الحقيقة سمى المقياس شخصياً . وعليه فالذى يجعل من ثقافته الخاصة ، وواقعه الخاص ، وعقله وعاداته الخاصة ، ونظرته الخاصة فى الحياة مقياساً للبحث كان مقياسه شخصياً

والباحث الذى يبعد كل هذه العوامل الشخصية فى البحث عن الحقيقة يكون قد قصد إليها متجرداً ، وتكون حقيقته التى وصل إليها حقيقة مجردة وعلى قدر تجرده فى بحثه مما هو شخصى يكون ظهور حقيقته ناصعة ، أى لم يسدل عليها أى غشاء شخصى لا دخل له فى ما هيتها الذاتية

والمقياس الشخصى اعتباره بالنسبة إلى الشخص الذى وضعه فحسب؛ فلا تلزم نتائجه غيره ولا تبنى عليه أحكام عامة . أما المقياس المجرد Objective فاعتباره عام ، لأن تجرده من الأثر الشخصى يبعد عنه نزاع الأفراد ويحمل كل فرد (تقريباً) على الاعتراف به، ولهذا تكون لنتائجه وأحكامه قوة القوانين والمبادىء العامة

وقد كان الشخص نفسه فى القديم معيار المعارف والعلوم ، متخذاً ذاته أساساً لبحث الحقيقة والحكم على التصرفات والسلوك الإنسانى بأحكام خلقية ، فما تخيله حقيقة فهو حقيقة (فى الواقع)

وما وقع حسنه فى نفسه فهو حسن (فى الواقع) . وأصبحت المعرفة لذلك عبارة عن حقائق شخصية ، وأصبح الشىء الواحد له أكثر من حقيقة . ولم يلبث أن أصبحت هذه الطريقة مذهباً فلسفياً عرف بالمذهب الشخصى Subjectivism كما عرف أتباعه بالشخصيين (وهم السفسطائيون فى العهد الأول)

ومع أن الفلاسفة الذين جاءوا بعد السفسطائيين ، مثل أفلاطون وأرسطو حاولوا التدليل على أن « حقائق الأشياء ثابتة » أى غير متعددة تبعاً لتعدد الأفراد ، وغير متغيرة لما بينها من مغايرة وفروق بحكم هذا التعدد ، ووضعوا لتعرفها قانوناً عاماً يسمى آلة العلوم ومعيار العلوم وهو المنطق الصورى ؛ ومع أنهم وصوا بعدم إقحام العادات والعقائد الدينية فى البحث لم تخلص معارفهم ولا الأحكام التى كونوها عن الله ، والعالم ، والإنسان — وهى فلسفتهم — من التأثر بثقافتهم الخاصة ، وبيئتهم الخاصة ، ونظراتهم الخاصة إلى الحياة ، وهى ما نسميها فى الفرق بين فيلسوف وفيلسوف

اتجه التفكير بعد ذلك ، وهو البحث الفلسفى ، إلى الإمعان فى الفصل بين المؤثرات الشخصية ، والنظر إلى الأشياء على ما هى عليه فى الأبحاث العلمية ؛ أو بعبارة أخرى مال إلى تجريد المقياس الذى يتخذ أساساً للبحث من الخصائص الفردية . ولم يستطع العقل « الحر » أن يسير خطوة فى تحقيق هذه الرغبة إلا منذ عصر النهضة ؛ أى بعد أن أخذت شعوب أوربا تتحرر من سلطان الكنيسة

وقد كان لموقف الإسلام تجاه الأبحاث الفلسفية منذ القرن التاسع الميلادى إلى القرن الثانى عشر أثر كبير فى التشجيع على عملية الفصل هذه . فبينما كانت الكنيسة فى الغرب تفرض أن تكون العقيدة الكنسية المبدأ الذى يأخذ منه البحث مجراه ، كان المسلمون فى الشرق ، ثم فى الغرب أيضاً يبحثون فى فروع الفلسفة المختلفة ؛ فى الطبيعة والرياضة حتى فى المسائل الإلهية ، والأبحاث النفسية الخلقية ، فى جو مملوء فى عمومه بحرية البحث وأنتج من فلاسفة المسلمين من استطاع أن ينتج . ووصلت فلسفتهم مميزة الفروع ، أى لم يراع فى بحثها مبدأ واحد كبدأ العقيدة مثلاً ، إلى أوربا عن طريق أسبانيا

فلما احتك العقل الأوربى الراغب فى التخلص من الجولان حول نقطة واحدة ، نقطة العقيدة ، بالعقل الشرقى الإسلامى الذى لم يتحكم فى تفكيره اتجاه خاص ، ازدادت رغبته فى بحث الكون من الكون نفسه ، فترك العقيدة جانباً ، أى ترك أهم عامل من العوامل التى تؤثر فى بحث الشخص والتى تجعل مقياسه العلمى شخصياً ، وعمل على تخلية نفسه من كل اعتبار آخر غير اعتبار « الحقيقة » لذاتها

وكان ديكارت أول فلاسفة عصر النهضة الذى نفذ هذه الرغبة فى صورة منظمة كاملة . ثم نحا كثير من الفلاسفة نحوه وهو العمل على وضع مقياس علمى مجرد عن الأثر الشخصى ، مقياس objective ، ولم يكن اختلافهم الذى بدا فى مذاهبهم المنسوبة إليهم اختلافاً فى وجوب اعتماد المعارف الإنسانية وفى حاجة يقينيتها إلى مثل هذا المقياس ، بل كان فى كمية الشروط وفى كيفها التى تحقق مثل هذا المقياس المنشود

وإذن أصبحنا نرى فى تاريخ الفكر البشرى مقياسين للمعارف: المقياس الشخصى ، والآخر غير الشخصى (المجرد) ، ونرى كذلك لإنتاجه طابعين : الطابع الشخصى والطابع الذى يتعدى الفرد والشخص

والتفلسف لم يقم — منذ أن قام — إلا لإيجاد المقياس غير الشخصى ، وإلا لأن يطبع أبحاث الإنسان وعلومه بطابع الاعتبار العام كى يتخذ منها أساساً واضحاً ، بعيداً عن النزاع الفردى ، فى إرشاد الإنسان نفسه وفى تمكينه من السيطرة على بيئته ، وبالتالى فى تقريب أفراد الجماعة الإنسانية بعضهم من بعض وفى تكوين ما يسمى « بالعقل الإنسانى »

والفلسفة فى بدئها ونهايتها ، وفى قديمها وحديثها ، لم تعمل لغير هذه الغاية . وما يبدو فى معارف الإنسان الأولى من خيال أو وهم أساسه استخدام المقياس الشخصى فى بحثها ، وما يبدو فى علومه الآن من عقل ومنطق أساسه التقرب بقدر ما يمكن من المقياس الثانى ، والتخلى بقدر المستطاع عن العوامل الشخصية فى البحث

وعلماء النفس حينما نظموا الأبحاث النفسية الحديثة ، فرضوا « الجماعة » نفساً كنفس الفرد سواء بسواء ، وطبقوا عليها لذلك مظاهر التطور النفسى من طفولة فمراهقة فرشد وبلوغ

وجعلوا من مميزات الطفولة « الأنانية » أو ما يسمى « بأنا » لأن الطفل فى أحكامه يصدر عن « ذاته » وليس عن الواقع المجرد عن شخصه ونفسه . وجعلوا من مظاهر المراهقة الوقوف

بين بين، إذ أحكامه وتصرفاته defoss غير واضحة المصدر . ولذا تراه يعيش كثيراً فى الخيال الذى لا يمت إلى الحقيقة الراهنة بصلة وثيقة . وأحياناً يساير الواقع ؛ ولكنه فى خياله ملك ممتع ، وفى حقيقته إنسان ضعيف يكثر البكاء والملل من هذه الحياة ؛ لأن القلم الذى يسطر به فى صحف الخيال لا يقدر على متابعة الكتابة فوق صخرة الواقع . وجعلوا من مظاهر الرشد أو النضوج ربط التصرف بالواقع ، وعدم إقحام المؤثرات الشخصية فى الحكم عليه ، والنظر إليه « بعين الحقيقة » لا بعينه هو

وكذلك حكموا على الجماعة فأطلقوا عليها جماعة ساذجة، أو لم تزل بعد فى دور الطفولة ، إذا كانت تجعل الفردية أو الشخصية أساس المعرفة ؛ وحكموا عليها ببلوغ طور المراهقة إذا حاولت الفصل بين الشخصى والواقع ، وببلوغ طور الرشد والنضوج إذا اتجهت فى أبحاثها نحو الواقع أكثر من تأثرها بالعوامل الشخصية

وعلى هذا فالتفلسف ، أو بحث الإنسان العقلى داخل الجماعة البشرية ، يمثل دور الطفولة فى الوقت الذى كان يسيطر فيه المذهب الشخصى Subjectivism ، ويحكى دور المراهقة فى الزمن الذى بدت فيه الرغبة إلى الفصل والعمل على تنفيذ تلك الرغبة . وفى عصرنا الحديث يدخل فى دور الرشد والنضوج لأن السائد فى أبحاثه مذهب الـ objektivism

هذا عرض تاريخى موجز لأساليب البحث فى القديم والحديث بالنسبة للفلسفة والتفلسف ، وفى أطوار نمو الفرد وتدرج الجماعة فى التفكير من الوجهة البسيكلوجية .

وفى ضوء هذا نعود إلى هؤلاء الباحثين ، أمثال ذلك الباحث «الألمانى»، الذين تتصل أحكامهم صلة وثيقة بذواتهم، وتتكون مما لهم من ثقافة خاصة ونظرة خاصة فى الحياة لنقول لهم : إن هذه الأبحاث ما دام مصدرها « أنا » وغايتها « أنت » سوف يكون اعتبارها شخصياً لا تؤدى نصيباً فى الإنتاج الفكرى العام .

ثم إلى هؤلاء الأقلاء الذين يسلكون فى أبحاثهم طريق « العقل الكلى » ، عقل الإنسانية — لا ذلك العقل الجزئى — لنقول لهم أيضاً : عليكم وحدكم يتوقف توجيه أمتنا فى حياتها العقلية وعليكم وحدكم يتوقف مستقبل التفكير فى مصر والسير به إلى طور الرشد والنضوج !

محمد البهى
دكتوراه فى الفلسفة وعلم النفس
من جامعتى برلين وهامبورغ

حزامير للنفس العربية !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

١ — ضمائر العهد الأول

نحن الآن فى قلب الجزيرة ... فى جاهليتها الأولى ، التربة بمعانى طفولة البشرية التى تملأ الحياة شعراً وتهاويل وأوهاماً ...

نخوض فى بحر من الرمال يغلى بالحرارة ، ويبسط على الجلود لفحات من لظى تصيب الأجسام بقشعريرة من بَحَران الحمى التى تصهر الأجسام ، وتجعلها جمرات مشبوبة المشاعر ، ثائرة العناصر ، حديدة المزاج ، مكشوفة الرماد عن الطبع الخالص ، والفطرة الصريحة ...

ننقل الخطا على تراب آبائنا الأولين ، ونبحث فيه عن عظامهم التى غابت فى التلال والرجام ...

ونشم فيه دماءهم التى ابتلعتها الرمال المتعطشة أبداً مع ما ابتلعت من دموع الغمام ...

ونحدق فى الأضواء والظلمات إلى صورهم التى طبعت فى ألواح الأثير مع ما صبته الشمس والكواكب من الأضواء والظلال ...

ونتسمع إلى أصواتهم التى فنيت فى الصمت المطلق ...

فتطالعنا من وراء الغيب أشباح لهـا وجوه سمراء ، حادة النظرات ، دقيقة الأنوف ، عريضة الجباه ، عليها سيما الكبرياء والاعتداد ، وسهوم العزلة والتفرد ...

يمتصون حرارة الصحراء ، وينضحونها دماء حارة ، وحرية حمراء ...

ويصيدون النعم الذائب فى الأجواء ، ويصوغونه شعراً منثوراً ومنظوماً ببيان يقتحم الآذان ، ويلقف العقول ...

ينشدونه فى هياكلهم المبنية بجدران من جبال ، وأعمدة من نخيل فارعات كالمردة ...

ويتغنون به فى مواسم الحب والحرب على حواف الآبار ، وشواطئ بحار السراب والآل ...

ويقيمون للبيان أسواقاً يعرضون فيها لعب الجن بأرواحهم